الطبعة الثانية
2015م - 1436هـ

مغامرات شارلوك هولمز

The Man with the Twisted Lip

الرجل ذو الشفة المقلوبة

تأليف: آرثر كونان دويل
ترجمة: سليمان حسون

أجيال الغد
سورية - دمشق - هاتف: 2256733 / 2262422 11 00963
ص.ب: 31453 - agyalalgadsyr@gmail.com
أشرف على التنفيذ الفني والطباعي دار الحافظ
daralhafez.net

6

مغامرات شارلوك هولمز

The Man with the Twisted Lip

الرجل ذو الشفة المقلوبة

تأليف: آرثر كونان دويل

نشرت للمرة الأولى في مجلة ستراند
كانون الأول 1891

ترجمة: سليمان حسون

مراجعة: لينا حجازي

مُقدِّمةٌ

تفوَّقت شخصية شارلوك هولمز على شهرة مخترعها سير آرثر كونان دويل وتجاوزت شهرتها ليس فقط لندن والجزيرة البريطانية، بل بلغت أقاصي العالم مع ترجمة أعمال ومغامرات هولمز إلى كل لغات العالم تقريباً. فلم يعد أحد من الشَّبان أو الشَّابات إلا ويعرف من هو ذلك المحقق اللامع الذّكاء الذي يعير انتباهاً إلى أدق التَّفاصيل عندما يضع قضية ما تحت مجهر فحصه الدَّقيق. ومن منا لا يذكر براعة هولمز في فك طلاسم أعقد الألغاز وأشدها غموضاً بطريقة تحليله المنطقية الشَّهيرة. تعتبر شخصية هولمز غير الحقيقية طبعاً واحدةً من أكثر الشَّخصيات تأثيراً في القراء خلال القرن العشرين نظراً لمخاطبتها عناصر أساسية في شخصية أي إنسان لتحفيز قدراته

العقليـة، وتفكـيره مـن أجـل الوصـول إلى حـل كل لغـز اشـتركت فيـه. وكأنَّهـا (أي شـخصية هولمـز) كانـت تحـث القـارئ دومـاً وتحفـزه للوصـول إلى الحقيقـة، أو حـل اللّغـز المطروح بشـكلٍ يجعل القـارئ يضطر لاسـتخدام كل ملكاته الفكريَّـة والعقليـة للوصـول مـع هولمز وواطسـون إلى حقيقة الأمـر، أو حتَّى أن يسـبقهما في التَّوصل للحقيقـة. الطَّريف في شـخصية هولمـز أنَّهـا وعـلى الرغم مـن أنَّها تقـدِّم لنا شـخصاً مـن لنـدن في نهايـة القـرن التَّاسـع عـشر إلا أنَّهـا مـن خـلال طريقـة تعاملهـا مـع مـا حولهـا ومـن حولهـا تبـدو شـخصية أكثـر معـاصرة وكأنَّ كونـان دويـل نجـح بتحويلهـا إلى شخصية خارج إطار زمان محدد.

الأهـم مـن شـخصية هولمـز التـي تتسـيَّد كل قصـص كونـان دويل هي شـخصيَّة كاتبهـا التي تشي بشـخص عاش حياتـه كتجربـةٍ عظيمـةٍ تمكَّـن إلى أقصى حـد في تصويرها من خـلال شـخصية هولمـز، أحيانـاً وشـخصية د. واطسـون بصـورةٍ أكـبر وأكثر جـلاء. كما تمكّـن الفنان سـيدني باجيت مـن ابتـداع صـورة نمطيـة محـدَّدة ومشـوِّقة للسـيد هولمـز في

أذهاننا، مع مواكبة قصص كونان دويل برسومات جميلة جعلت صورة هولمز المرتدي لقبعته المميزة. وغليونه الجميل، صورة لا تمحى من أذهاننا.

آرثر كونان دويل

مؤلف شخصيَّة «شارلوك هولمز»

ولد الطبيب والروائي البريطاني السير آرثر كونان دويل في أدنبرة باسكتلندا سنة 1859، واشتهرت الشَّخصية التي ابتدعها «شارلوك هولمز» لرجل التَّحري الذَّكي القادر على فك ألغاز الجرائم، معتمداً على امكاناته الذِّهنية وقوة الملاحظة، واتباع طريقة الملاحظة والتَّحليل والاستنتاج بالاعتماد على العلم والمنطق، هذه الشَّخصية التي أصبحت أكثر شهرة من مبتدعها.

وقد مُثلت العديد من رواياته وقصصه، وتحوَّلت إلى أفلام سينمائية وأفلام كارتونية. وقد هجر السير آرثر دويل مهنة الطّب بعد أن مارسها ثماني سنوات، واتَّجه إلى الأدب، واستطاع أن يبدع فيه. بدأ حياته الأدبية سنة 1887 بكتابة القصص القصيرة للمجلات بهدف زيادة دخله. يقول

النَّاقد كريستوفر مورلي عن شارلوك هولمز: لم يحدث أبداً أن نالت شخصيَّة روائيَّة هذا الحظ من القدرة على امتاع القرَّاء والالتصاق بهم بمثل ما نالت شخصية شارلوك هولمز. فالسير آرثر دويل بعد أن مارس مهنة الطّب في عيادته التي لم يكن يزورها إلا النُّزر اليسير من المرضى، كان يجد أوقاتاً كبيرة من الفراغ، شغلها بكتابة القصص القصيرة، والتي لم تنل حظاً من النَّجاح في البداية.

إلا أنَّه وبعد نشر روايته الأولى عن شارلوك هولمز سنة 1887 أخذ نجمه في الصّعود. وبلغت مجموع القصص والرِّوايات التي كتبها السير آرثر دويل وظهرت فيها شخصية شارلوك هولمز حوالي 60 عملاً، جُلّها من القصص القصيرة ، حتَّى أصبح السير آرثر دويل من أكثر كتَّاب القصَّة القصيرة دخلاً في عصره.

ونظراً لجهوده في دعم الحكومة البريطانية في حرب البوير «1899 - 1902» رقِّيَ إلى رتبة فارس سنة 1902.

شارلوك هولمز

شخصيَّة خياليَّة لمحقِّق من أواخر القرن التَّاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ابتكرها الكاتب والطَّبيب الاسكتلندي سير آرثر كونان دويل، ظهرت الشَّخصية لأول مرة في 1887، واشتهرت الشَّخصية بمهارتها الشَّديدة في استخدام المنطق والمراقبة لحل القضايا، وقد يكون هو أشهر محقِّق خيالي في العالم، وهو بالفعل أحد أكثر الشَّخصيَّات الأدبيَّة المعروفة بشكلٍ عالمي.

كتب كونان دويل أربع روايات، وستاً وخمسين قصَّة قصيرة من بطولة هولمز، رويت جميعها من قبل صديقه الحميم وكاتب سيرته دكتور جون هـ. واطسون، باستثناء قصَّتين رواهما هولمز بنفسه، واثنتين رويتا بضمير الغائب.

وصف شارلوك هولمز نفسه بأنَّه محقِّقٌ استشاري خبير، يتم استدعاؤه لحل القضايا التي يثبُت أنَّها صعبة الحل جدَّاً على المحققين الرَّسميين (النَّمطيين). وتُخبر القصص أنَّه كان قادراً في العديد من المناسبات على حل القضايا بدون مُغادرة بيته، دون أن تهتم القصص بتقديم الكثير من

هـذه القضايـا الصَّغـيرة، مُركِـزَةً عـلى القضايـا المشـوِّقة التي تتطلَّـب منـه القيام بتحريك سـاقيه فعـلاً. يتخصَّص هولمز في حـل القضايـا الغريبـة مسـتخدماً قـواه الاسـتثنائية في المراقبة والتَّحليل المنطقي.

يُصوَّر هولمز بشـكلٍ دائم في الوسـائط الإعلاميـة المختلفة مرتديـاً قبعـة صائد الأيائـل وعباءته، مُدخناً غليوناً، وممسـكاً بعدسـةٍ مكـبرة. ويوصـف هولـمز بأنَّـه سـيدٌ إنجليـزي مـن الطِّـراز الفيكتـوري، طويـلٌ ورشـيقٌ، لـه عينـان حادَّتـان دقيقتـان، وأنـف معقـوف. بالرُّغـم مـن قامتـه النَّحيلـة فـإنَّ قدراتـه البدنيَّـة عاليـة. هـو ملاكـمٌ ومبـارزٌ ماهرٌ، وعـادة ما يتغلَّـب عـلى خصومـه في المـرات القليلـة نسـبيَّاً التـي اضطر فيهـا للاشـتباك جسـديَّاً. وفي مغامـرة إكليـل العقيـق يقـول هولـمز أنَّـه: (يمتلك قوة اسـتثنائية في أصابعه). أمَّـا في مغامرة المنـزل الفـارغ فيذكـر أنَّـه: (يمتلـك القليل مـن المعرفة حول المصارعـة اليابانيـة). كان يعيـش هولـمز في لندن شـارع بيكر عنوان 221 B.

في أوَّل قصصـه، دراسـة بالقرمـزي، قُدِمَـت بعـض

المعلومـات عن خلفيـة هولـمز. قُـدِم في 4 آذار 1881 على أنَّه طالـب كيميـاء مسـتقل، لـه مجموعةٌ واسـعةٌ مـن الاهتمامات الجانبيـة، وتقريبـاً؛ فـإنَّ كل هـذه الاهتمامات تصـب في مجرى مسـاعدته ليصبـح خارقـاً في حـل الجرائم. في مغامـرة أخرى مبكِّـرة بعنـوان مغامـرة غلوريـا سـكوت، تتضـح الأسـباب التـي دعت هولـمز إلى العمـل كمحقق خـاص؛ امتـداح والد زميله في الكلية الشَّديد لمواهبه وقدراته الاستنتاجيَّة.

في مغامـرة المترجـم الإغريقـي، يقـول هولـمز: أنَّ جدَّتـه كانت شـقيقة الرَّسـام الفرنسي فيرنو. وفي دراسـة بالقرمزي، يضع دكتور واطسون تقييماً لمهارات شارلوك:

ويعتـبر شـارلوك هولـمز أيضـاً مُحلِّـل شـفرات كـفء، ويقـول لواطسـون: أنا متآلف مـع كل أشـكال الكتابة السريَّة بشـكل جيـد، وأنـا نفسـي مؤلـف كتـاب ثانـوي حـول الموضـوع، حللـت فيـه مائـة وسـتين شـفرة منفصلـة. حُلت إحـدى الشَّـفرات في مغامـرة الرِّجـال الرَّاقصـين، التـي استخدمت سلسلة من الأشكال الأوليَّة.

كـما أظهر هولـمز نفسـه كأسـتاذ في التَّنكر بعـد أن تنكر في

أشكال مختلفة خلال مغامرات: بحار (علامة الأربعة) وسائس خيل، ورجل دين (فضيحة في بوهيميا)، ومدمن أفيون (الرَّجل ذو الشفة المقلوبة)، ومتبطل عادي (مغامرة إكليل العقيق)، وكاهن إيطالي عجوز (مغامرة المشكلة الأخيرة)، وبائع كتب (مغامرة البيت الفارغ)، وعامل تمديدات صحيَّة أو سبَّاك (مغامرة تشارلز أغسطس ميلفيرتون)، ورجل محتضر (مغامرة المحقِّق المحتضر)، وأخيراً متسول كلب آل باسكرفيل.

ويمكن اعتبار هولمز رائداً في علم الأدلَّة الجنائيَّة الحديث لاستخدامه هذا العلم في قضاياه، مثل: تعرفه على الفروقات بين أنواع الآلات الكاتبة لفضح الاحتيال (قضية هوية). وتوصله إلى جريمة باكتشافه قطعتين من البقايا البشرية (مغامرة صندوق الورق). وملاحظته لبقايا بارود على الضحية (مغامرة ميدان ريغاتي). وملاحظته نوع الرَّصاص المستخدَم في جريمتين (مغامرة البيت الفارغ). واستخدامه بصمة الأصابع لتحرير رجل بريء (مغامرة باني نوروود).

عاش شارلوك هولمز تاريخياً، في 221 B شارع بيكر، لندن منذ 1881، حيث أمضى العديد من سنواته المهنية مع صديقه الحميم دكتور واطسون، الذي تشارك الشقة معه قبل زواج واطسون في 1890. وكانت تشرف على صيانة الشقة والاهتمام بها السيدة مارثا هدسون، مالكة البناية. وقد وصف دويل الحي الذي يعيشان فيه بدقة، حتَّى أنَّ الكثيرين من القرَّاء زاروا شارع بيكر للبحث عن العنوان الخيالي.

ومن أبرز الشَّخصيات التي ظهرت في حياة شارلوك هولمز:

د. واطسون

واطسون؛ صديق هولمز الحميم، وكاتب سيرته الذَّاتيَّة، كما أنَّه يقوم بتسجيل معظم قضايا هولمز. وفي القصص الأخيرة ينتقد هولمز واطسون دائماً لأنَّه يروي القصص بشكلٍ مثيرٍ، مبتعداً عن الطَّريقة الموضوعية والمفصَّلة للتقارير التي تركز على ما يُسميه هولمز (العلم المحض). واطسون، بالمقابل، له سمعة مبررة بعض الشَّيء

كرجل يميل إلى النّساء، يتكلّم بحب عن بعض النِّساء، وفي بعض القصص الطّويلة كثيراً ما يركِّز على جمال امرأة معيَّنة، وفي النِّهاية فإنَّه يتزوَّج واحدة بالفعل. ماري مورستان من رواية علامة الأربعة.

جيمس موريارتي

«عدو شارلوك هولمز الأزلي»

البروفيسور جيمس موريارتي (نابليون الجريمة)، هو في الأساس معلِّم الرياضيات الخصوصي لهولمز، كما أشير لذلك أيضاً في عمل بارينغ-غولد. وهو المشكلة الأساسية في العديد من قضايا شارلوك هولمز.

سقط مع هولمز أثناء صراعهما في شلالات راينباخ. ونوى كونان دويل أن تكون (المشكلة النِّهائية) التي حدث فيها ذلك، هي آخر قصة يكتبها عن هولمز، لكنَّ الرَّسائل الكثيرة التي استلمها مطالبةً بعودة هولمز أقنعته بالاستمرار في كتابة القصص. وفي (مغامرة المنزل الفارغ) أخبر كونان دويل أنَّ موريارتي وحده من سقط في الشَّلال، وأنَّ هولمز جعل العالم يعتقد بأنَّه مات أيضاً ليراوغ أتباع موريارتي.

آيرين أدلر

المرأة الوحيدة التي أبدى هولمز اهتماماً بها. وتبعاً لما قاله واطسون، فإنَّ هولمز كان يشير إليها دائماً باعتبارها (المرأة). بالرُّغم من أنَّ هولمز نفسه لم يستخدم هذا المصطلح، على أنَّه ذكر اسمها الفعلي عدَّة مرات في قضايا أخرى. وهي أيضاً واحدة من النِّساء القلائل اللائي ذُكرن في قصص شارلوك هولمز، بالرُّغم من أنَّها ظهرت فقط في قصة فضيحة في بوهيميا، إلا أنَّها غالباً ما اعتبرت المرأة الوحيدة التي كسرت تحفُّظ هولمز. وهي المرأة الوحيدة التي هزمت هولمز في لغز.

مايكروفت هولمز

الشَّقيق الأكبر لهولمز، الذي يمتلك قوى تحليلية تفوق حتَّى تلك التي يتمتَّع بها شقيقه الأصغر. وبالرُّغم من ذلك فإنَّ مايكروفت غير قادر على أداء عمل تحرٍ مشابه لعمل شارلوك، لأنَّه لا ينوي بذل أي جهد جسدي ضروري لحل القضايا.

ليس لديه طموح أو طاقة، ولن يتزحزح عن هذا حتَّى ليثبت حلوله الخاصَّة، ويُفضِل أن يُعتبر حله خاطئاً على أن يتحمَّل عناء إثبات صحة كلامه. كثيراً ما أخذت مُعضلاتي إليه، وحصلت منه على شروحات ثبت صحتها فيما بعد، غير أنَّه كان دائماً غير قادر على حل النّقاط العمليَّة.

الرجل ذو الشفة المقلوبة

كان آيـزا ويتنـي مدمن عـلى تعاطي الأفيون المخـدِّر، وكـما فهمـت فقـد اكتسـب هـذه العـادة عندمـا كان يـدرس في الكليـة. لقـد وجد، كـما فعل الكثـيرون، أنّ اكتسـاب عادة ما أسهل بكثير من التّخلُّص منها أو التّوقف عنها.

وهكـذا بقـي آيـزا عبـداً للأفيـون ومحـط ازدراء وشـفقة أصدقائه وأقاربه.

في إحـدى ليـالي حزيـران مـن العـام 1889، رنّ جـرس منـزلي، فاستويتُ في الكرسي الـذي أرتاح عليـه، فيما أوقفتْ زوجتـي عملهـا بإبـرة الحياكـة والامتعـاض بادٍ عـلى وجهها مـن هـذا الـذي يُزعجنـا معتقـدةً أنّـه مريـضٌ مفاجـيء. وقالت: لا بد أنَّه مريض! سوف تضطر للخروج مجدَّداً.

لم يـرق لي الأمـر أنـا أيضـاً لأنّي بالـكاد وصلـت إلى المنزل

بعد أن قضيتُ نهاراً مرهقاً.

سمعنا بعدها الباب يُفتح كما سمعنا بعض الكلمات التي قيلت على عجلٍ، ثم خطوات متسارعة تدق على الأرض، وبعد ذلك انفتح الباب ودخلت الغرفة امرأةً تضع حجاباً.

- أرجو أن تسامحوني على القدوم بمثل هذه السّاعة المتأخرة.

وما أن انتهت من قول تلك الكلمات حتّى فقدت السّيطرة على نفسها، وارتمت بين ذراعي زوجتي تجهش بالبكاء.

- أنا في ورطةٍ كبيرةٍ! إني بحاجة إلى المساعدة!

قامت زوجتي على الفور برفع الحجاب عن وجه المرأة وهي تقول: إنّها كايت ويتني!

لقد فاجأتني يا كايت! لم أدرك أنّ هذا أنتِ عندما دخلتِ الغرفة.

- كنتُ ضائعةً وأتيتُ إليكم على الفور.

لم يكن ما يحدث غريباً، فقد كانت زوجتي بالنِّسبة لمن يعاني مشكلةً كالمنارة بالنِّسبة للسُّفن التّائهة أو الطّيور.

تابعت كايت تقول: أحتاج إلى نصيحة الدكتور ومساعدته أيضاً.

إنّ الأمر متعلِّقٌ بآيزا. لقد خرج من المنزل منذ يومين ولم يعد حتّى الآن. أنا قلقةٌ عليه!

لم تكن هذه المرة الأولى التي نتحدّث فيها عن مشاكل زوجها. لذلك بدا الأمر طبيعيّاً، وحاولنا أن نهدِّئ من روعها ونواسيها، مستخدمين كل ما في جعبتنا من كلام مناسب، لكن بقي السؤال معلّقاً.

هل تعرف مكان زوجها؟

وهل يمكننا إعادته لها؟

كانت تصرفاته الخرقاء حتّى اليوم لا تتعدّى غيابه عن البيت أكثر من يومٍ واحدٍ فقط، لكن غيابه هذه المرّة امتد لأكثر من ثاني وأربعين ساعة.

كانت زوجته واثقة أنّه مستلقٍ في مكانٍ ما على رصيف المرفأ.

لكن ماذا عساها تفعل؟

كيف لامرأةٍ شابةٍ وخجولة مثلها أن تشق طريقها بين حشود البحّارة في مثل ذلك المكان وتحاول إخراج زوجها من بين المُدمنين والسكارى الذين يحيطون به؟!

كانت تلك هي المسألة باختصارٍ شديدٍ، وليس هناك سوى حل واحد للخروج من ذلك المأزق وهي؛ أن أذهب بنفسي لإخراجه من هناك.

وهكذا كان... في المرحلة الأولى من مغامرتي كان الأمر سهلاً. وما أن وجدتُ الوكر الذي يختبئ فيه زوجها حتّى طلبتُ من سائق العربة الوقوف، وترجَّلتُ مجتازاً السّلالم نزولاً أحمل بيدي في ذلك المكان المظلم مصباح زيت يهتز مع حركتي.

وصلتُ إلى غرفةٍ منخفضةٍ جدّاً تعبق برائحة الأفيون الغامق. كانت الغرفة مليئة بالأسرَّة التي توضع في السفن التي تحمل المسافرين إلى أمريكا والعالم الجديد.

عندما تصبح في مثل ذلك المكان ترى وسط هذا الدُّخان الكثيف والغشاوة أطياف أجساد ممدة بوضعيات

غريبة، يستلقي معظمهم صامتين، فيما البعض الآخر يحدِّثون أنفسهم أو يتحدّثون مع بعضهم البعض بصوتٍ منخفضٍ أقرب إلى الهمس وبشكلٍ بطيء ورتيب.

وما أن دخلتُ حتّى اتّجه نحوي خادم ماليزي يحمل معه غليوناً والقليل من الأفيون.

فقلتُ له: شكراً، لا أريد، لن أبقى طويلاً.

أنا أبحث عن صديقٍ لي هنا، إنّه السيد آيزا ويتني.

أود أن أتكلَّم معه إذا سمحت.

وفيما أنا أتحدَّث مع الخادم، شعرتُ بحركةٍ على يميني.

وعندما نظرت بذلك الاتجاه، وجدتُ ويتني يستلقي شاحب الوجه منهك وشعره أشعث.

كان ينظر باتجاهي لكنّه لم يعرفني في البداية حتّى سمعت حديثي فصاح: يا إلهي!

هذا أنت واطسون!

كم الساعة الآن يا واطسون؟



- حوالي الحادية عشرة.

- في أي يوم نحن؟

- الجمعة 19 حزيران.

- يا إلهي! اعتقدتُ أنّه يوم الأربعاء!

إنّه فعلاً يوم الأربعاء!

ثمّ وضع وجهه بين يديه وأخذ يبكي بصوتٍ مرتفعٍ.

- قلت لك أنّ اليوم هو الجمعة.

زوجتُكَ تنتظر عودتك منذ يومين وهي بغاية القلق عليك. ألا تخجل من نفسك؟

- نعم، أخجل من نفسي، لكن هناك سوء فهم في الموضوع، فقد أتيت إلى هنا منذ ساعاتٍ فقط ولم أدخن غليون الأفيون سوى ثلاث أو أربع مرّات، لم أعد أذكر عددها بالتَّحديد.

على كل حال سأعود معك إلى المنزل.

كيف لي أن أنسى كايت، صغيرتي المسكينة كايت؟!

أعطني يدك! هل العربة بانتظارك؟

- نعم إنّها تنتظرني.

وعندما مررتُ قرب الرّجل الجالس قرب المدفأة، شعرتُ بأحدهم يشد طرف معطفي ويكلِّمني بصوتٍ خافتٍ يهمس لي: تجاوزني ثمّ التفت باتِّجاهي وانظر إليّ.

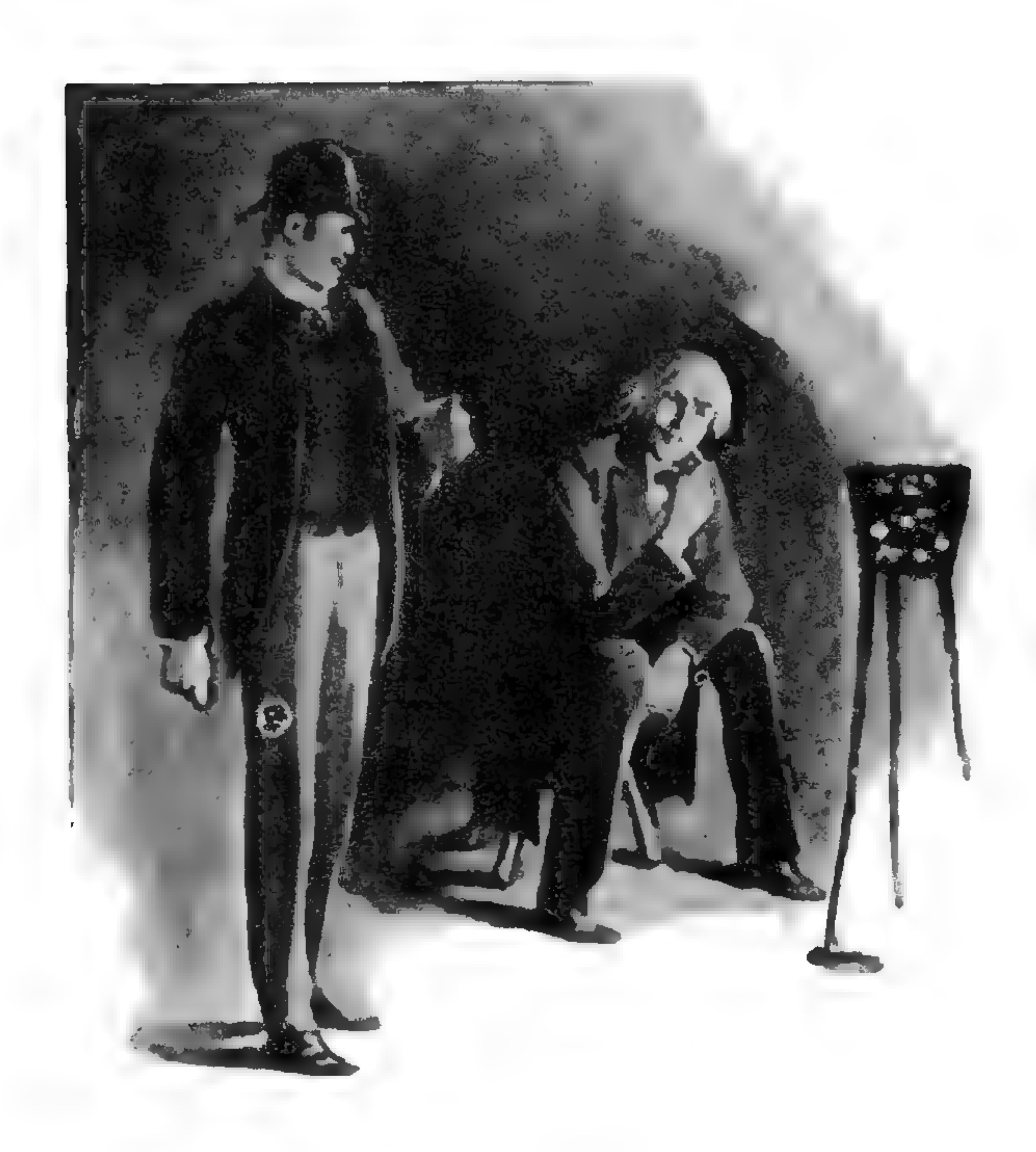
سمعت كلماته بوضوح، واستدرتُ فتأكَّدتُ أنّها صدرت حتماً عن الرّجل العجوز الجالس بجانب المكان الذي مررتُ منه.

خطوتُ بضع خطوات ثم نظرتُ إلى الخلف.

لا أدري ماذا فعلت حتى سيطرتُ على نفسي لأمنعها من إطلاق صيحة تعجُّب كبيرة، فلم يكن العجوز الذي أدار ظهره حتّى لا يُرى وجهه أحد سوى شارلوك هولمز بلحمه وشحمه حيث فجأة اختفت عنه ملامح الرجل العجوز فقد أمتلأ جسمه واختفت التّجاعيد وعاد البريق لعينيه.

أشار لي كي أقترب منه.

وما أن فعلت حتّى همستُ له: هولمز! ماذا تفعل هنا بالله عليك؟



- اخفض صوتك قدر ما تستطيع، فسمعي ممتاز. أرجو أن تتخلّص من صديقك الاسكتلندي لأنّي بحاجةٍ إلى التّحدث معك قليلاً.

عادة ما يكون رفض طلباً لشارلوك هولمز مسألةً صعبةً لأنّه يصوغ طلباته بدقّةٍ وبراعةٍ.

لقد اعتقدتُ قبل رؤية شارلوك هولمز في هذا المكان الغريب بأنّ مهمّتي ستنتهي عندما يستقل ويتني العربة التي ستأخذه إلى منزله، لكن بعد رؤيته كان جل ما تمنيته أن أشارك صديقي هولمز مغامرةً أخرى من مغامراته الشيّقة التي تشكّل خبزه اليومي.

وما هي إلا دقائق معدودة حتّى سدّدتُ ماتوجّب على ويتني وأوصلته إلى العربة التي أقلّته تحت جناح الظّلام إلى منزله.

وسرعان ما لاح من حجرة الأفيون وجهٌ منهك لأجد نفسي أمشي برفقة شارلوك هولمز في الشّارع بعد قليل.

- لقد فاجأتني رؤيتك في مثل هذا المكان.

- لم تكن مفاجئتك أكبر من مفاجئتي.

- أتيتُ بحثاً عن صديق.

- أمّا أنا فقد أتيتُ بحثاً عن أحد أعدائي.

- عدو؟

- المسألة باختصار يا واطسون، أنّي الآن أُجري تحقيقاً مهمّاً جداً. لقد أتيت إلى هنا أملاً بالحصول على حل، كما فعلتُ من قبل.

هناك بابٌ خلف هذا البناء، لو تمكّن من الكلام، لروى قصصاً غريبة عن الذين يعبرونه في الليالي المظلمة والتي لا ينيرها ضوء القمر.

وضع سبابتيه بين أسنانه وأطلق صافرةً قوية كانت عبارة عن إشارة ما، سرعان ما وجدت من يرد عليها بصفيرٍ مماثل من مكانٍ بعيد، ثمَّ سمعت صوت عجلات عربة وطرق حوافر حصان على الأرض.

- سترافقني يا واطسون، أليس كذلك؟

- إذا كنتَ بحاجةٍ لي.

- نحتاج دوماً إلى صديق موثوق به. هناك سريران في

غرفتي في سيدارز.

– سيدارز؟

– نعـم، إنَّـه منزل السّـيد سـانت كلـير. أمكـثُ هناك إلى أن أُنهي التّحقيق.

– لكنِّي لم أفهم شيئاً بعد.

– هـذا صحيـح. سـتعرف كل شيء قريباً. هيـا بنا، اصعد إلى العربة.

حسـناً يـا جـون، لـن نحتـاج إليـك الآن. إليـك هـذا النّصف كراون.

أرجو أن تلاقيني غداً في الحادية عشرة تقريباً.

ضرب الحصـان بسـوطه فانطلقنا عبر دهليز متشـابك من الشّوارع المعتمة الخالية من المارة.

مـا لبثـتْ تلك الدَّهاليز أن اتّسـعت تدريجيـاً إلى أن وصلنا إلى جـسر واسـع لـه سـور حديـدي والنهـر المعتم يجـري من تحتنـا

.



كان هولمز صامتاً طوال الرحلة وكأنّه يفكّر، بينما جلستُ أنا بقربه مُتحرِّقاً لمعرفة المزيد عن قضيته الجديدة.

وبعد أن اجتزنا بضعة أميال وشارفنا على الوصول إلى أطراف منطقة الفيلات، انتفض هولمز وسوّى كتفيه ثمّ أشعل غليونه، وكأنّه كان راضياً عمّا قام به وقال: إذا كان الكلام من فضّة فالسكوت من ذهب يا واطسون. لكنّي سعيدٌ لأجد شخصاً أستطيع الكلام معه.

ماذا سأقول لتلك المرأة العزيزة عندما تستقبلني بعد قليل عند باب البيت؟

- لابد أنّك نسيت مرة أخرى أني لا أعرف شيئاً عن الموضوع حتّى الآن؟

- لدينا ما يكفي من الوقت لأخبرك بكل الوقائع قبل أن نصل إلى «لي».

- تفضّل.

- قبل بضع سنوات، وتحديداً في شهر أيار عام 1884، جاء رجلٌ يُدعى نيفيل سانت كلير إلى «لي».

كان يبدو عليه أنّه رجلٌ ثري جدّاً فقد اشترى فيلا

كبيرة، وكوّن تدريجياً شبكة من المعارف والأصدقاء الجدد من الجوار، كما تزوَّج في العام 1887 ابنة شخص يعمل في صناعة البيرة أو الجعة، ورزق منها بولدين.

لم يكن للرَّجل وظيفة محدَّدة لأنّه كان يُدير مجموعة من الشَّركات.

وقد اعتاد أن يذهب إلى المدينة صباحاً ويعود في تمام الخامسة وأربعة عشرة دقيقة كل مساء عبر شارع كانون.

يبلغ السيد سانت كلير من العمر الآن 37 عاماً وليس لديه عادات مميّزة. إنّه زوجٌ صالح وأب عطوف وجميع من يعرفونه يحبونه. كما أنّه لا يوجد ما يدل على أنّه كان يعاني مشاكل مادية.

توجّه السيد سانت كلير إلى المدينة نهار الاثنين الماضي أبكر من العادة، ووعد أن يجلب معه لابنه لعبة.

وقد صادف أن تلقّت زوجته بعد رحيله برقيّة تقول: أنّ طرداً مهمّاً كان ينتظره وصل إلى مكتب شركة أبردين للشحن في شارع فرينسو حيث وجدتني الليلة.

تناولت السيدة سانت كلير غداءها وتوجّهت إلى وسط

المدينة. ذهبت أولاً للتّسوق ثمّ توجّهت إلى مكاتب شركة أبردين، ووصلت في تمام الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة إلى شارع سواندام بطريق العودة إلى المحطة.

هل تتابع التّفاصيل بوضوح وتركيز يا واطسون؟

- نعم... كل شيء واضح حتّى الآن.

- سارت السيدة سانت كلير ببطء وهي تبحث عن عربة تقلّها.

وفيما هي تفعل ذلك، سمعت فجأة هتافاً وصراخاً، وكم فوجئت عندما رأت زوجها ينظر إليها من الأعلى، وتسنّى لها أن ترى وجهه بوضوح وآثار التّوتر باديةً عليه. وسرعان ما اختفى فجأةً بعيداً عن أنظارها كما لو أنّ قوّةً خارقة شدّته من الخلف.

وبملاحظة الأنثى القويّة انتبهت السيدة سانت كلير أنّ زوجها لم يكن يضع ربطة العنق أو الياقة رغم أنّه كان يرتدي معطفه الدّاكن.

حينها أدركت أنّه في ورطةٍ، وأنّ مكروهاً قد أصابه، فنزلت السُّلّم على عجل إلى داخل المنزل لكن ذلك المكان

لم يكـن سـوى واحد مـن أوكار الذين يتعاطـون الأفيون وهو المكان الذي وجدتني فيه اللّيلة.

ركضـت السيدة سـانت كلـير باتّجـاه الغرفـة الأماميـة حيـث حاولـت صعـود الـدّرج إلى الطّابـق الأول، إلا أنّهـا واجهـت هنـاك ذلـك النّذل لاسـكار الـذي منعهـا من المضي بطريقها وحملها ورماها في الشّارع.

وهناك التقتْ مصادفةً بمفتّش في شارع فرينسو.

فرافقهـا هـو ورجلان آخـران إلى المكان الـذي طُردت منه وتحديـداً إلى الغرفـة التـي شـاهدت زوجهـا مـن شـباكها، لكنّهـم لم يجـدوا أثـراً للسّـيد سـانت كلـير، باسـتثناء اللعبـة التي وعد بجلبها لابنه.

كان اكتشـاف ذلـك، إضافـة إلى الارتبـاك الواضـح عـلى وجـه ذلـك المُعـاق، جعـل المفتّـش يـدرك مـدى خطـورة الوضع.

تـمّ تفتيـش الغـرف بدقّـةٍ، وأشـارت كل نتائـج التّفتيش إلى وقوع جريمة مروعة.



فنتيجـة التّفتيـش والتَّدقيق، وُجـدت آثار دمـاء على حافة النّافـذة حيـث وقـف السيد سـانت كلـير إضافـة إلى عـدة قطرات دم متفرِّقة على الأرض الخشبية لغرفة النوم.

كـما وُجد خلف سـتارة شـباك الغرفـة الأماميـة كل ثياب السيد سانت كلير باستثناء معطفه.

كان يبـدو أنّـه اختفى عـبر النَّافـذة كونها المخـرج الوحيد في الغرفة.

الآن يجـب أن نتسـاءل عـن الأشرار المتورطـين مباشرةً في هذه القضية.

لدى لاسـكار سـوابق وسـجِّل إجرامي سيء. لكـن بما أنّ السّـيدة سـانت كلير ذكـرت في روايتها أنّـه كان موجوداً عند أسـفل الـدّرج بعد ثـوان معدودةً عـلى اختفاء زوجهـا، أدعى أنّه لم يكن يعلم شيئاً بما يجري فوق.

كـما نفى معرفتـه بالطّريقة التـي وصلت فيها ثياب السّـيد سانت كلير إلى هناك.

أمّـا بالنّسـبة لذلـك المعـاق البائس الـذي يقيـم في الطّابق الثّـاني مـن وكـر الأفيـون، والـذي كان بالتأكيـد آخـر مـن

شاهد نيفيل سانت كلير، فيُدعى هوغ بون وهو متسوِّل يتَّخذ التّسول عملاً له.

لابد أنّكَ لاحظتَ وجود فجوة صغيرة بجانب شارع تريدنيدل اليسرى.

هناك يجلس ليتسوّل من المارة، وقد علمنا أنّ نزيل في وكر الأفيون وأنّه آخر من شاهد الرّجل الذي نبحث عنه.

- سألتُ متعجِّباً: لكنّه معاق! ماذا يمكن لرجل مبتور اليد أن يفعل أو يقاتل أو يتعارك مع شاب بكامل صحته وفي مقتبل العمر؟

- أنت تعرف يا د. واطسون بحكم خبرتك الطبيّة أنّ من يكون معاقاً بأحد أعضاء جسمه يكون شخصاً ذا قدرات خارقة في أعضاء أخرى من جسده.

- أرجو أن تكمل لي سلسلة الأحداث.



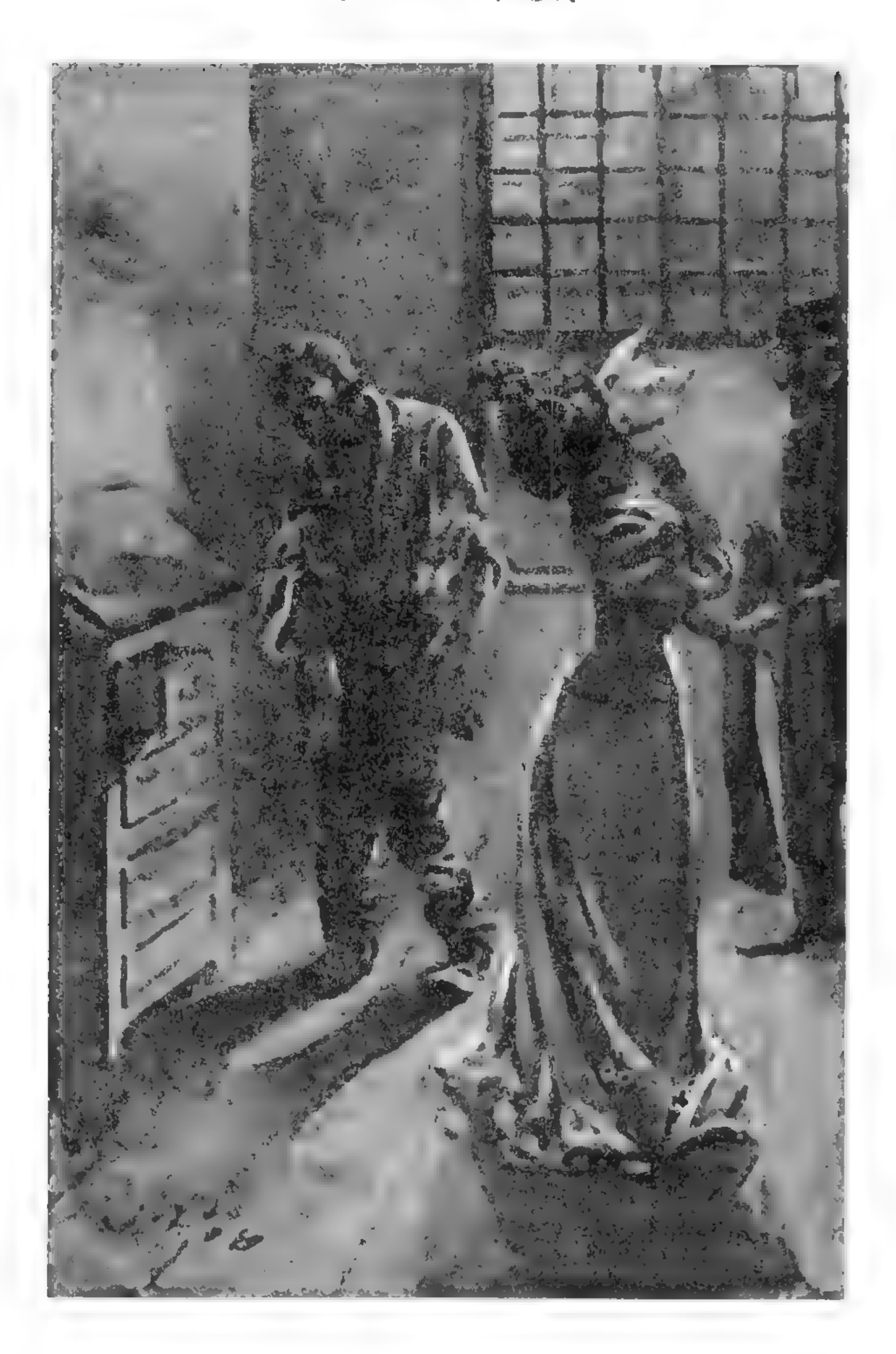
- عندما رأت السّيدة سانت كلير الدّم على النّافذة، سقطت أرضاً مغشياً عليها، فأعادتها الشرطة إلى منزلها.

أمّا المفتّش بارتون الذي تولّى القضية فقد تفحّص المكان بدقة متناهية لكن دون أن يجد ما يفيد.

برأيي لقد أخطأت الشرطة بعدم إلقاء القبض فوراً على بون مما منحه بضع دقائق، أخبر خلالها لاسكار بما حدث، ورغم أنّه أُلقي القبض عليه لاحقاً وتم تفتيشه، لكنّهم لم يعثروا معه على أي شيء يدينه بالجريمة.

حتّى أنّه نفى نفياً قاطعاً رؤية السّيد سانت كلير وأقسم أنّ وجود ثيابه في الغرفة لغز يحيره بمقدار ما يحيّر الشرطة.

أمّا بالنّسبة لقول السيدة سانت كلير أنّها شاهدت زوجها على نافذة الغرفة، فأدعى أنّها لابد أن تكون تحلم أو تتخيّل حسب رأيه.



بعد ذلك عثرت الشّرطة وبعد بحث عند الضفة الموحلة ما كانت تخشى أن تجده، معطف نيفيل سانت كلير وليس جثته، بعد أن تراجعت المد في البحيرة، فماذا وجدوا في جيب معطفه برأيك؟

- لا أدري.

- لم أعتقد أنّك ستحزر.

لقد وجدوا في كل جيب من جيوبه مجموعةً كبيرةً من القروش وأنصاف القروش أي العملة التي غالباً ما يحصل عليها المتسولون.

وعندها عرفوا لماذا لم يجرف التيّار المعطف معه نظراً لوزن العملة المعدنيّة الكبير الذي جعل المعطف أثقل على الماء وبالتّالي لم يجرفه التّيّار فيما ابتلع النهر الجثة العارية.

- لكن كل ملابسه الأخرى كما فهمت، كانت موجودة في الغرفة. أي أنّ المعطف كان يغطي جسده العاري؟

- لا يا عزيزي واطسون. لنفترض أنّ بون رمى نيفيل سانت كلير من النّافذة، فماذا يجب أن يفعل بعد ذلك؟

عليه التّخلص من الثياب التي ستفضح أمره بالتّأكيد.

لكن لم يكن أمامه متّسع من الوقت، فسارع إلى مخبأ سري أخفى فيه أموال التّسول وملأ الجيوب بما طالته يداه من نقود كي لا يطفو المعطف على وجه الماء في النّهر.

ثمّ رماه وأراد فعل الشيء نفسه بالثياب الأخرى لولا سماعه للخطوات المسرعة في الطابق الأرضي كما لم يتمكّن من إغلاق النّافذة بإحكام قبل وصول الشرطة.

– هذا منطقي جدّاً.

– سنعمل على أساس أنّ هذه الفرضية صحيحة بانتظار ما هو أفضل.

لكن هناك سؤال مهم لماذا جاء نيفيل سانت كلير إلى وكر الأفيون؟

وماذا حلّ به؟

وأين هو الآن؟

وما علاقة هوغ بون باختفائه؟

أقسم أنّي لم أعمل على قضية بهذه السهولة في البداية وتحوي هذا الكم من الصعوبات في مراحلها اللّاحقة.

غاص شارلوك هولمز في هذه التّفاصيل المثيرة لمجريات الأحداث، وهو يجول في ضواحي المدينة حتّى تجاوزنا قريتين نائيتين كانت الأنوار لا زالت تضيء بعض نوافذهما.

قطع زميلي حبل الصّمت قائلاً: أترى ذلك الضّوء بين الأشجار؟ هذه هي سيدارز، وقرب هذا المصباح تجلس امرأةٌ لاشك أنّها متيقظة لدرجة لاحظت فيها اقترابنا وسمعت صوت حوافر حصان عربتنا.

آه كم أكره مواجهتها يا واطسون فيما لا أحمل لها أي خبر جيد عن زوجها. ها قد وصلنا.

توقّف أمام فيلا كبيرة تحيط بها أرضٌ واسعةٌ. وأسرع الحوذي الصّغير ليمسك بالحصان فيما توجّهتُ أنا خلف هولمز عبر ممر مفروش بالحصى إلى المنزل.

وما أن اقتربنا من الباب حتّى فُتح وظهرت من خلفه امرأة شقراء قصيرة القامة.

وقفت تنظر إلينا بعينين متوجستين قلقاً وكأن هناك سؤال معلّق على شفتيها. سألت: حسناً؟ هل من أخبار جديدة؟

- كلا.

- هل هناك أخبار سيئة؟

- لا.

- حمداً لله. تفضلا بالدخول. لا بد أنّكما متعبان بعد عناء يوم طويل.

- أود أن أقدم لك صديقي الدكتور واطسون.

لقد قدم لي مساعدة كبيرة في العديد من القضايا التّي عملت عليها وشاءت مصادفة سعيدة أن أتعرف عليه وأشاركه تحقيقاتي.

أجابت بعد أن شدّت على يدي بحرارة وهي تصافحني: تشرَّفتُ بمعرفتك.

أرجو أن تعذروني إذا كان المنزل بحالة من الفوضى فقد أصبحتُ كالتّائهة بعد هذه المصيبة التي وقعت على رأسي.

- لا داعي للاعتذار يا سيدتي.

دخلنا غرفة الطّعام المضاءة، فوجدنا حساءً بارداً بانتظارنا على الطّاولة.



قالت: هل يمكنني أن أسألك سؤال أو اثنين يا سيد شارلوك هولمز وأتمنّى أن تجيبني بصراحة؟

- طبعاً، تفضّلي.

- هل تعتقد حقاً أن نيفيل لا يزال حياً؟

كان السؤال محرجاً جدّاً لهولمز، فتابعت قائلةً: أرجوك أخبرني رأيك بصراحة ودون مواربة!

ثمّ نظرت إليه بتمعن بينما أرخى هو جسده على كرسي الخيزران الذي يجلس عليه.

- بصراحة يا سيدتي، لست أدري.

- هل تعتقد أنّه ميت؟

- نعم.

- ميت نتيجة جريمة قتل؟

- ربما.

- هل يمكنك أن تشرح لي إذن يا سيد هولمز، من أين أتت هذه الرسالة اليوم؟

وقفت باسمةً تحمل في يدها ورقةً صغيرةً.

تناول هولمز الورقة بحماسةٍ بالغةٍ وفتحها على الطّاولة، ثمّ قام بتقريب المصباح منها وأخذ يقرأها بتمعُّن. حتّى أنا نهضتُ عن مقعدي وبدأتُ أقرأ بدوري من خلفه.

كان المغلَّف متّسخاً ويحمل ختم غريفساند وتاريخ اليوم أو بالأحرى تاريخ يوم أمس كون السّاعة تجاوزت منتصف اللّيل.

- هذا بالتّأكيد ليس خط يد زوجك.

- لا، ليس خط يده. لكن محتوى المغلّف صحيح.

- أعتقد أيضاً أنّ مُرسل الخطاب سأل أولاً عن العنوان. فلننظر إلى الرِّسالة الآن! هنا المحتوى.

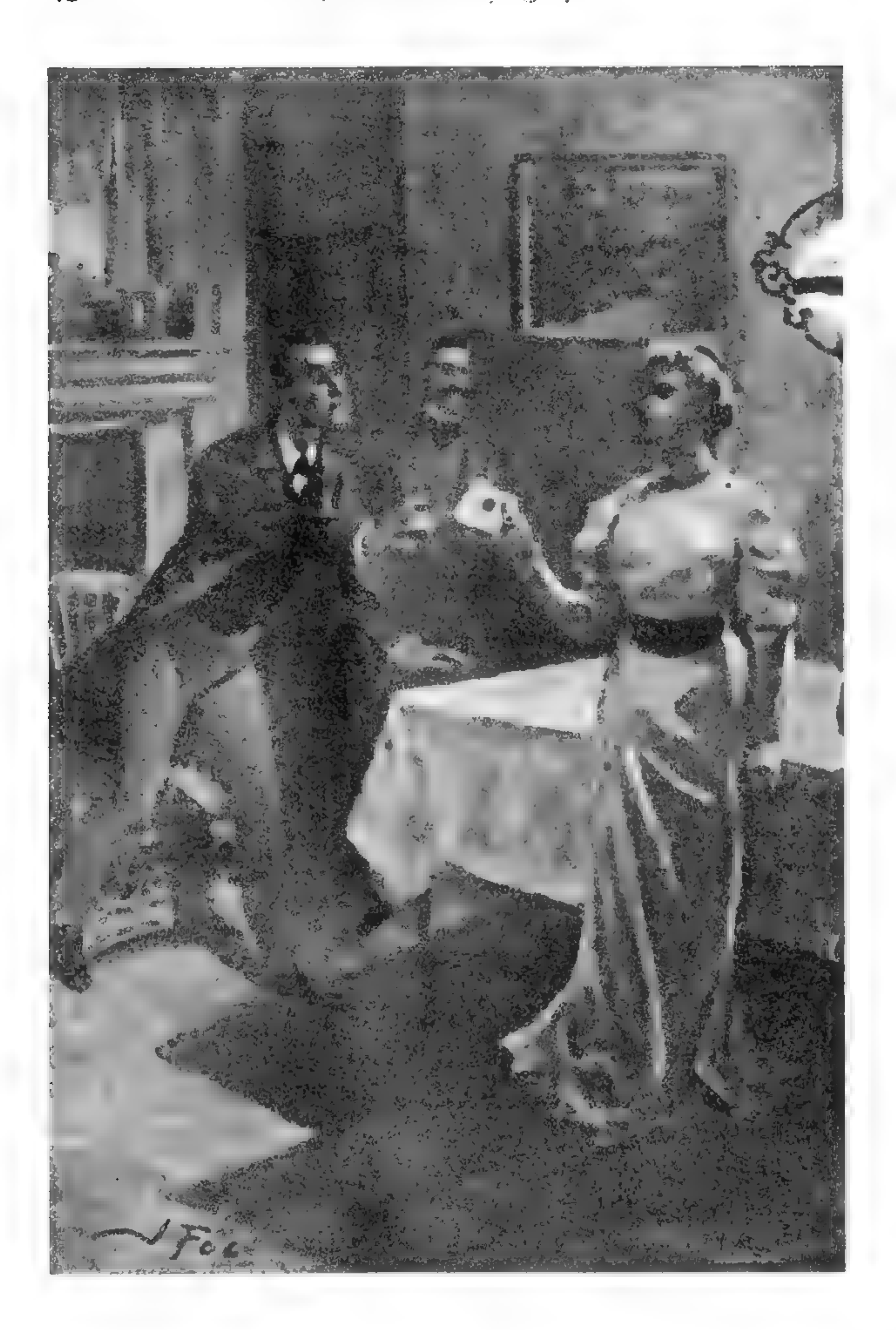
- نعم كانت هناك حلقة، حلقة ختمه.

- هل أنت واثقة من أنّها يد زوجك؟

- إنّها إحدى يديه.

- إحدى يديه؟

- عندما يكتب على عجل. هذا ليس خطّه المعتاد، لكنّي أعرفه جيِّداً.



كان الخطاب يقول:

لا تقلقـي يـا عزيزتي. كل شيء سـيكون على ما يـرام. لقد وقـع خطـأ فـادح سـوف نعمل عـلى تصحيحـه، لكـن الأمر سيتطلّب بعض الوقت. أرجو أن تكوني صبورة.

نيفيل

- لقـد تمّـت كتابة الرسـالة بقلم رصاص عـلى ورقة ممزّقة من كتاب، ولا يوجد علامة على نسيج الورق.

كـما أنّ مـن أرسـلها عـبر بريـد غريفسـاند شـخص يـده متّسخة.

إضافـةً لذلك فإنّ الحاشـية قـد تمّ محوها من قبل شـخص كان يمضـغ تبغـاً. ومـع كل هذا أنـتِ واثقةٌ أنَّـه خط زوجك يا سيِّدتي؟

- نعم، نيفيل هو من كتب هذه الرِّسالة.

- حسـناً إذن، يبدو أنّ غيوم الشّـك والقلـق المخيفة بدأت تنقشـع يا سـيدة سـانت كلير رغـم أنّي لن أخاطـر وأقول لك أنّ الخطر قد زال كلياً.

- بالله عليك يا سيد هولمز، لا تقوِّض آمالي. أنا واثقةٌ تماماً أنّه بخير.

هناك تَخاطر روحي عميق بيني وبين زوجي يجعلني أستشعر الخطر المحدِّق به على الفور.

- هذه الرِّسالة أكبر دليل على ما تقولينه. لكن لو كان زوجك فعلاً على قيد الحياة ويستطيع كتابة خطاب لك، لماذا إذن فضّل التّواري والاختباء عندما رآك؟ ألم يذكر شيئاً قبل أن يغادر يوم الاثنين؟

- لا.

- هل تفاجأتِ لرؤيته في شارع سواندام؟

- جداً.

- هل كانت النّافذة مفتوحة عندما شاهدتيه؟

- نعم.

- ولم يصدر عنه سوى صرخة مبهمة كما فهمت، أليس كذلك؟

- نعم.

- هل اعتقدت أنّه كان يطلب النّجدة؟

- نعم. فقد كان يشير بيديه.

- ربما كانت صرخةُ تعجَّب عندما رآك، فرفع يديه.

- هذا ممكن.

- هل تعتقدين أنّ أحداً ما قد شدّه بعنف من الخلف؟

- لقد اختفى فجأةً.

- ربما تراجع هو إلى الخلف. هل رأيتِ أحداً غيره في الغرفة؟

- لا، لكن ذلك الرجل المريع اعترف أنّه كان هناك، و لاسكار كان موجوداً عند أسفل الدّرج.

- هذا صحيح. لكن هل كان زوجك يرتدي ثيابه المعتادة؟

- نعم، لكن دون ياقته أو ربطة عنقه. لقد رأيت عنقه عارياً.

- هل سبق أن ذكر شارع سواندام أمامك من قبل؟

- أبداً.

- شكراً سيدة سانت كلير. لقد أردتُ التّأكد من هذه النّقاط. سوف نتناول العشاء ونخلد إلى النَّوم لأنَّ بانتظارنا يوماً طويلاً جدّاً غداً.

خصصت لنا السّيدة سانت كلير غرفة نوم كبيرة ومريحة بسريرين.

وسرعان ما غفوت نتيجة إرهاقي بعد أن أنهكتني مغامرتي اللّيليَّة، أمّا بالنّسبة لشارلوك هولمز، فكلّما كانت لديه مشكلة لم يستطع حلّها، ما كان ليهدأ له بال قبل إنهاءها حتّى لو تطلب الأمر بقاءه مستيقظاً لأيام وأسابيع.

فهو يستمر بتحليل ومراجعة الأحداث والوقائع ويضع النّظريّة تلو الأخرى حتّى يفهم ما حدث، أو يقتنع أنّ ما لديه من معلومات ليس كافياً للتّوصل إلى حل.

استيقظتُ على صوت عالٍ مفاجئ، فضربت عيني مباشرة شمس الصيف وقد تسلّلت أشعتها الأولى إلى الغرفة.

كان شارلوك هولمز لا يزال يدّخن تبغ غليونه، حيث امتلأت الغرفة برائحة الدخان.



وعندما استقمتُ في السرير، سأل: هل استيقظتَ ياواطسون؟

- نعم.

- أأنت مستعد للرحلة الصّباحية؟

- طبعاً.

- ارتدِ ملابسك إذن.

كان يبدو شخصاً مختلفاً عن ذلك الذي كان يفكّر بعمق اللّيلة الماضية.

نظرتُ إلى ساعتي وأنا أرتدي ملابسي. كانت السّاعة تشير إلى الرّابعة وخمس وعشرين دقيقة صباحاً.

وما أن انتهيت من ارتداء ملابسي حتّى دخل هولمز يخبرني أنّ الحوذي الشّاب يسرج الحصان.

قال وهو ينتعل حذائه: أود أن أجرِّب صحة إحدى نظريّاتي. أعتقد أنِّي أملك مفتاح حل هذا اللّغز.

سألته مبتسماً: وأين هو هذا المفتاح؟

أجاب: في «الحمام».

وتابع كلامه عندما شاهد علامات التّعجُّب تغزو ملامحي: أنا جاد. كنت هناك، وجدته فأخذته. هيا، سنتحقّق إن كان هو المفتاح المناسب للقفل الذي أفكّر فيه.

نزلنا الدّرج بأقصى سرعتنا وخرجنا إلى شمس الصّباح السّاطعة وتوجّهنا من هناك إلى لندن.

قال هولمز: إنّها قضية مميّزة لأسباب عديدة.

كان الوقت لا يزال باكراً عند وصولنا لندن، وبدأ من استفاقوا باكرين بملء شوارعها، فيما البعض لا يزال ينظر من النّافذة والنعاس ما زال مسيطراً عليهم.

كان عناصر شرطة شارع بو يعرفون شارلوك هولمز جيّداً. حيّاه شرطيان عند باب المركز، وأمسك أحدهما لجام الحصان، بينما قادنا الآخر إلى الدّاخل.

سأله هولمز: من المناوب اليوم؟

- المفتّش برادستريت يا سيدي.

- برادستريت، كيف حالك ؟

تقـدّم باتِّجاهنـا عـبر الـرواق رجـل طويـل القامـة قـوي البنيّـة فقـال هولمـز: برادسـتريت، أود التّحـدث إليـك لـو سمحت.

- بالطّبع يا سيد هولمز. تفضّل إلى مكتبي.

دخلنـا غرفـة مكتـب صغـيرة، جلـس فيها المفتِّـش خلف مكتبه وقال: كيف يمكنني مساعدتك يا سيد هولمز؟

- أتيـت بحثاً عن المتسـول بـون، ذاك الذي اتُّهـم بالعلاقة باختفاء السيد نيفيل سانت كلير.

- نعـم، لقـد أحضرنـاه إلى هنـا وأبقينـاه لمزيـد مـن التّحقيقات والاستجواب.

- صحيح. لقد عرفت ذلك. أما زال هنا؟

- في زنزانته.

- هل هو هادئ؟

- تماماً، لكنّه نذل وسخ.

- وسخ! كيف ذلك؟

- نعـم. بالـكاد أجبرنـاه عـلى غسـل وجهـه المغطّـى

بالسخّام، وكأنّه سمكري أو عامل الصّرف الصحي.

- أود أن أراه.

- حقاً؟ لا بأس. تفضلا بمرافقتي.

قادنا المفتش عبر ممر ينتهي بباب عليه مزلاج كبير، ثمّ نزلنا على درج لولبي وصولاً إلى ممر آخر جدرانه بيضاء تتوزعّ الأبواب على جانبيه.

قال المفتش: ثالث باب على اليمين.

فتح على مهل لوحة في أعلى الباب ونظر عبرها. ثم نظرنا نحن بعد ذلك عبرها أيضاً.

كان السجين مستلقياً ووجهه قبالتنا، كان مستغرقاً في سباتٍ عميق.

لقد كان يتنفس ببطء وعمق، وكان متّسخاً جداً كما قال المفتش لكن القذارة التي غطّت وجهه لم تتمكّن من إخفاء بشاعته التي ينفر منها أي شخص، حيث لاحظنا وجود ندبة قديمة تمتد من عينه حتّى ذقنه. وقد انقلبت شفته العلوية نتيجة انقباض النّدبة.



قال المفتّش: إنّه آية في الجمال، أليس كذلك؟!

- يحتاج إلى حمام. لقد فكّرتُ بذلك وجلبتُ معي العدة اللّازمة للأمر.

لم أصدِّق عيني عندما رأيته يفتح حقيبته ويخرج منها ليفة حمام كبيرة.

ضحك المفتش وقال: أنت مضحك فعلاً يا سيد هولمز!

- هلا فتحت الباب بهدوء لنخرجه بعد ذلك بمظهر لائق؟

أدخل المفتش المفتاح في القفل ودخلنا جميعاً الزنزانة بهدوء.

استدار السجين في نومه واستغرق مجدَّداً في نوم عميق.

بلّل هولمز الليفة وفرك بها وجه السجين مرتين وبقوة.

ثم صاح قائلاً: أُقدِّم لكم السيد نيفيل سانت كلير، من منطقة «لي» في مقاطعة «كنت»!

لم أرَ في حياتي كلّها مشهداً يُشبه هذا المشهد! انقشع

وجه الرّجل كلحاء شجرة أو جلد أفعى.

فزالت النّدبة والشّفة المقلوبة التي منحت وجهه تلك الهيئة المنفرّة!

وعندما أدرك الرجل ما حل به، صرخ بصوت عالٍ وأخفى وجهه في وسادته.

قال المفتش: يا إله السماوات! إنّه فعلاً الرّجل المفقود. تعرّفت عليه من خلال الصورة.



استدار الرّجل وقد بدا مُستسلماً بلا حول أو قوة وقال: حسناً، أنا هو. ما ذنبي؟

- أنا أعمل مع الشرطة منذ 27 عاماً لكن هذه القضية هي أغرب قضية واجهتها في حياتي.

- إذا كنت أنا فعلاً السيد نيفيل سانت كلير، من الواضح أنّه لا يوجد جريمة، وبالتّالي فأنا موقوف بصورةٍ غير شرعيّة.

- ليس هناك أي جريمة لكن خطأً فادحاً قد حدث. كان عليك أن تثق بزوجتك أكثر مما تفعل حتّى الآن.

- ساعدني يا إلهي! لا أريد أن يخجل أولادي بأبيهم. ياإلهي! ياللعار! ماذا عساي أن أفعل؟

جلس شارلوك هولمز قربه على السّرير وربت بلطف على كتفه وقال له: لو تركت للمحكمة حرية البت في القضية، من الصّعب جدّاً ألا يفتضح أمرك.

من جانب آخر، إذا نجحتُ في إقناع الشرطة بأنّك غير مذنب، لا أرى أنّه هناك أي داعٍ لنشر تفاصيل ما حدث في الصحف وتحول الأمر إلى فضيحة بالنّسبة لك.

- فليباركك الله! أفضِّل التّوقيف والسجن المؤبَد وحتّى الموت شنقاً على افتضاح أمري وانكشاف سري أمام عائلتي وأولادي.

والآن ستكون أنت أول من يعرف قصّتي الحقيقيّة.

بدأتُ العمل كصحفي في جريدةٍ مسائيّة في لندن. رغب رئيس التّحرير في أحد الأيام أن ينشر سلسلة مقالات عن ظاهرة التّسوُّل في المدينة، فتطوّعتُ أنا لإجراء التّحقيق الصحفي.

ومن هنا بدأت مغامرتي... كانت الطّريقة الوحيدة للحصول على التّفاصيل اللازمة لمقالاتي أن ألعب بنفسي دور المتسول.

وهكذا تسوّلتُ أول مرّة لمدة سبع ساعات.

وكم فوجئت مساءً ذلك اليوم عندما أدركتُ أنّي قد جنيت 26 شلناً وأربعة بنسات.

كتبت مقالاتي ولم أهتم أن تأخّرت عن سداد سند أمانة مستحق عليّ لأحد أصدقائي وقدره 25 جنيهاً.

وبينما أنا أفكّر في طريقة أؤمن بها المال، خطر لي أن

أتسوّل لعشرة أيام في وسط المدينة وأنا متنكِّر تاماً كما فعلت في المرة الأولى.

وتمكّنتُ بغضون عشرة أيام من جني المبلغ اللازم وتسديد الدِّين.

عندها بدأتُ أعيش صراع نفسي حاد بين عزّة نفسي التي تأبى التّسوُّل وحاجتي الملحّة للمال لينتصر المال في النهاية، فتركت ُعملي في الصحافة، وبدأتُ أعمل كمتسول، وأخذتُ يوماً بعد الآخر أقضي وقت عملي في زاويتي في الشارع.

ولم يعرف أحد سرِّي إلا رجل واحد هو لاسكار، صاحب وكر الأفيون في شارع سواندام حيث كنت أدخل إليه صباحاً كسيِّدٍ مُحترم وأخرج بعد قليل كمتسول، وأعود في المساء لأدخل كمتسول وأخرج كرجلٍ محترم.

كنت أدفع مبلغاً محترماً من المال إلى لاسكار كي أطمئن إلى كتمه لسري.

وبعد وقت قصير أدركت أني أجني مبالغ وفيرة من المال.

وكبر طموحي مع ازدياد ثروتي، فاشتريت منزلاً في الريف، وتزوّجتُ دون أن يعرف أحد طبيعة عملي.

حتّى أنّ زوجتي العزيزة لم تكن تعرف إلا أنّه كان لدي مصالح في وسط المدينة دون أن تعلم أي تفاصيل أخرى.

كنت يوم الاثنين الماضي قد أنهيتُ عملي وبدأت أرتدي ثيابي الجيدة في الغرفة العلويّة من وكر الأفيون، حين رأيتُ من النّافذة زوجتي تنظر إلي.

عندها أطلقتُ صرخة تعجّب كبيرة وغطّيتُ وجهي بيدي، وهُرعت إلى لاسكار أطلب منه منع أي شخص من الصعود إلى الأعلى.

وبالفعل، سمعت صوتها بالأسفل لكنّي ارتحت لأنّ لاسكار منعها من الصعود.

قمت بخلع ملابسي بسرعةٍ، وارتديت ملابس المتسوِّل وتنكّرتُ بحيث يصعب حتّى على زوجتي التّعرف عليّ.

وخطر ببالي، ماذا لو فتّشوا الغرفة ووجدوا ملابسي؟ ففتحت النافذة وأعدت فتح الجرح الذي أصابني صباحاً في غرفة نومي، ثم تناولت معطفي وقد ملأت جيوبه

بالنقود المعدنية التي جنيتها ذلك اليوم ورميته عبر النّافذة إلى نهر التايمز الذي جرفه معه.

كنت سأفعل نفس الشّيء ببقية الثياب عندما سمعت صوت أقدام مهرولة تصعد الدرج.

وتبيّن لي بعد لحظات أنّهم لم يتعرفوا عليّ على أني السيد نيفيل بل على أنّي قاتله! ولكم أن تصدِّقوا أو لا، لقد شعرتُ بارتياحٍ كبير!

علمتُ أن زوجتي ستقلق كثيراً بشأني، فأخذتُ خاتمي وأعطيته إلى لاسكار دون أن يراني أحد، طالباً منه أن يرسله إلى زوجتي كي تطمئن.

عندها قال هولمز: لكنّها لم تتلقَ الخاتم إلا يوم أمس.

- يا إلهي! لا بد أنّها أمضت أسبوعاً مرَّ عليها وكأنّها في الجحيم.

فقال المفتّش برادستريت: التّأخر طبيعي كون رجال الشرطة كانوا يراقبون لاسكار، فكان صعباً عليه أن يرسل الخطاب إلى زوجتك دون أن يراه أحد.

إذا كان على الشرطة أن تتكتّم على هذا الأمر، يجب أن

تختفي شخصية هوغ بون إلى الأبد.

- أقسم بشرفي ألا أتسوّل بعد الآن.

- حسناً إذن، في هذه الحالة، لن يتم اتّخاذ أي تدابير إضافيّة بشأن هذه القضيّة.

لكن إذا ضبطك تتسول مجدداً، سأفضح أمرك بنفسي لعائلتك والعالم.

أنا واثق يا سيد هولمز أنّنا ندين لك بالكثير لأنّك أوضحتَ وفككتَ رموز هذا اللغز المحيِّر. ليتني أعرف كيف تتوصّل إلى حل هذه الألغاز.

أجاب صديقي: لقد تمكّنت من حلّ اللغز بجلوسي على خمس وسادات وتدخين الكثير من التّبغ.

أعتقد يا واطسون أنّنا لو انطلقنا الآن إلى شارع بيكر، سنصل في الوقت المحدّد لتناول طعام الإفطار.

• انتهى •